مشايخ الطرق الصوفية

فى ميدان الخدمة الاجتماعية

لحضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

العقيدة قوة تصنع المعجزات متى أحسن توجيهها والانتفاع بها ، والزعماء والمصلحون عرفوا هذه الحقيقة فاتجه همهم أولا إلى تكوين العقيدة و إنمائها وتقويتها ، حتى إذا تم لهم هذا وجهوا تلك القوة الخارقة وجهة العمل فلم تبال ما فى طريقها من مناعب وحواجز ، ولم تقف فى سبيلها قوة من القوى المادية .

ولو كنت شيخا من مشايخ الطرق لانتبهت إلى هذه الحقيقة وعرفت أن "المريدين" من حولى قوة ضخمة لأن العقيدة هى أخص ما يطبع جماعات الصوفية ؛ والتضحيات التى يبذلها الأتباع تنفيذا لرغبات الشيخ أو اكتسابا لرضائه تضحيات لاتبعثها إلا العقيدة الجارفة القوية ، ولعرفت كيف أنتفع بهـذه القوة ، وكيف أوجهها إلى خدمة أغراض الدين الاجتماعية والخلقية ، دون أن أتكلف شيئا سوى رسم البرنامج و بيان الوسائل وتوجيه الجهود .

للطرق الصوفية مراسم وطقوس معروفة . وليس لى من اعتراض على هـذه المراسم والطقوس ، فهى شعائر من شأنها أن تقوى العقيدة وتزيد من الحماسة لها . والطبيعة الإنسانية تريد مظاهر مادية وحركية ترمز بها إلى العقيدة الباطنية الوجدانية : فرفع اليد بالسلام على طريقة خاصة ولبس شارة معينة وما إلى ذلك من الطقوس يزيد التحمس والحرارة للعقيدة فى النفس ، وما حلقات الذكر وأمثالها إلا نوع من هـذه الشعائر . وهى كذلك تصريف لطاقة جسدية زائدة و إشباع لقوة خياليـة فائضة ربما أدى كبتها إلى وسائل أخرى غير مأمونة لتصريفها والتعبير عنها .

ولكننى لم أكن لأقنع بهذه الطقوس وأعدهـا غاية ما ترمى إليه الطريقة ، فالإسـلام ليس دين الشعائر والطقوس وحدها ، بل إنه ماشرع الشعائر والطقوس إلا تمكينا للعقيدة وتمييزا لأصحابها ومرانا على الطاعة والنظام و إعدادا للتهذيب والتوجه إلى الخالق بالأعمال .

إنمـا الإسلام دين العمل والاجتماع و إصلاح الحياة الدنيا والتمتع بها والمحافظة على نظامها وتهيئة وسائل الخير لها ، وقد عد ذلك كله من وسائل الصلاح فى الآخرة وموجبات الجزاء فيها . فكل انزواء عن المجتمع واقتصار على إقامة الشعائر مخالف لروح الدين ونصوصه ، ومعطل لغرض أصيل من أغراضه .

يجب إذن ان يكون للطرق الصوفية بجانب المراسم والطقوس وظيفة عملية اجتماعية خلقية ، وأن تستغل كل مالديها من القوى — وهى كثيرة — لأداء عمل نافع للمجتمع مما يحث عليه الدين و يتواصى به المؤمنون و يجعل لهذه الحياة قيمة ومثلا أعلى .

ولو كنت شيخا من مشايخ هذه الطرق لوجدت بين يدى قوة لعقيدة ، وقوة الكثرة ، وقوة المال . ولاستغلت ذلك كله استغلالا يكفل لهذه الطرق البقاء والدوام ، ويشعرنى بالقوة الحقيقية والسلطان ، ويجعلنى ذا أثر عملى فى مجرى الحوادث والأمور فى البلاد !

ففى أى الاتجاهات كنت أوجه هذه القوى جميعا ؟

فى مصر طفولة مشردة هى منبع من منابع الإجرام والبغاء . هذه الطفولة المشردة التى هى ذرة المستقبل و جزء من الثروة القومية العامة ، لا تجد اللقمة ولا الخرقة ولا تجد كذلك اليد الناعمة ولا القلب الرحيم ولا الإرشاد السليم ، وتضيق إصلاحيات الأحداث بها كما تضيق الملاجئ وتنبذهم هذه وتلك فى سن المراهقة — صبيانا وصبيات — فيعودون إلى التشرد والجريمة والبغاء ويخسرهم المجتمع ويخسر بهم خسارة كبيرة .

وفى مصر سجون تقذف كل يوم بأفواج من الناس بعد انقضاء العقوبة ، فيهم الصانع أو العامل الذى سدت فى وجهه سبل الكسب بعد وصمته بالجريمة والسجن وينبذه المجتمع خوفا منه وحذرا و ريبة ، وفيهم المظلوم الذى لم يستطع إظهار براءته فخرج ناقما على المجتمع شاكا فى كل عدالة وخير ، يتربص الفرصة للانتقام ، وفيهم المجرم الذى اعتاد الجريمة وألف السجون فهو يرتقب يوم خروجه ليرتكب الجريمة من جديد و يعود الى السجن من جديد .

وفى مصر مدمنون للخمر والمخدرات والقمار ، تهدم أجسامهم تلك الآفات وتذهب بأموالهم وتسىء إلى زوجاتهم وذرياتهم ، وتؤذى كرامة المجتمع كله وتوهن من بنائه ، وتؤهل للجريمة بعد فقد الوظيفة أو ضياع الثروة بسبب هذا الإدمان .

وفى مصر عصابات وساقطات يتهيئون جميعا للبغاء وتجارة الرقيق الأبيض لأن العشرة الأولى تقودهم إلى الثانية وهذه إلى الثالثة ، وهذه الى الماخور أو المنسر ، ولا يجدون من يأخذ بيدهم ويحميهم من تتابع العثرات أو يردهم الى المجتمع أطهارا شرفاء .

وفى مصر تعطل وفقر مدقع فى أوساط وبيئات لا تصل إليها أيدى الحكومة والجماعات الخيرية القائمة . وتعد هذه الهيئات أوكارا للفساد والجريمة . لأن النور والرحمة والهداية والمعونة لا تصل إليها ولا تومض لأهليها ومضة الرجاء .

وفى مصر .. وفى مصر ما لا يستطيع قلم أن يصفه من مزالق ومباءات و بؤس وظلام ، وفى هذا كله يجد رجال الطرق الصوفية عملا و يجدون لذة فى هذا العمل حين يوجهون التوجيه المستنير اللائق بالدين و بالقرن العشرين .

لو كنت شيخا لجعلت من طقوس الطريقة أن يلتزم كل " مريد " هداية احد العصاة وكسبه إلى جيش الفضيلة ، ولجعلت للمريدين مراتب والقابا ترتفع بنسبة الذين يهديهم ويرشدهم ويعيدهم إلى المجتمع أبرارا ويحثهم على وسائل العيش الشريف ويهيئ لهم السبيل ، ثم لضممت العصاة التائبين إلى زمرة المريدين ، وحتمت عليهم الإرشاد والهداية بدورهم والاستكثار من التائبين !

ما الذى يكلفنى هذا الاتجاه ؟ إنه لا يكلفنى شيئا سوى التنظيم والإشاد والتوجيه . إنه لا يقلل من سلطتى الروحية على أتباعى بل يزيدها قوة ، ولا يقلل من عدد المريدين حولى بل يزيدهم كثرة ، ولا يقلل من إيرادى بل يزيده وفرة . إنه يشعرنى أننى بناء فى هذا المجتمع المتهدم ، مدعم فى هذا الكيان المختل ، عامل لله والوطن والضمير .

ولو كنت شيخا لرتبت أتباعى ومريدى فرقا بحسب ميولهم واستعداداتهم وأوضاعهم :

ففرقة تقف أمام أبواب السجون تتلقف الخارجين الذين لا يجدون لهم مقرا ولا عملا ولا شفاعة ، فتمسح بالإرشاد والنصح والمؤانسة ما وقر فى نفوسهم من الحقد والكراهية للمجتمع والوحشة والغربة فى شعب ، حتى إذا استأنسوا وأمنوا سعت الفرقة لإلحاقهم بالأعمال التى كانوا يزاولونها بضمانتها وإرشادها ، ثم ظلت على الاتصال بهم وتتبع أخبارهم فى محال أعمالهم والتوصية بهم ، حتى يحسوا أن وراءهم من يهتم بهم ، وحتى يخجلوا أن يعودوا سيرتهم بعد هذا البر الذى لقوه والعطف الذى لمسوه .

وفرقة تقف قريبا من الخانات ودور الإدمان والقمار والمواخير تتلقف المدمنين والمفسودين وتتحين الأوقات التى يثوبون فيها إلى رشدهم وتستيقظ فيها ضمائرهم فتمدهم بالنصح والإرشاد وتزورهم وتستزيرهم وتعقد بهم صلة وصحبة حتى لا تدع لهم فرصة للانتكاس ، فالإجرام والدعارة عادة تقاوم بعادة مثلها ولا يفيد النصح المجرد فيها كثيرا إلا بطول العشرة وتقضية الأوقات فى ملهاة شاغلة .

وفرقة تجوس خلال الأزقة والحارات فى تلك الكهوف المروعة التى تقطنها جماعات من الشعب شعثاء غبراء مريضة هزيلة تنخر فيها الأدواء الجسمية والخلقية ، فتحاول هذه الفرقة انتشال هؤلاء الآدميين من وهدة الجوع والعرى والفساد والجهل ، بالتعليم القليل والإرشاد الأولى والصدقة المعينة والمرأة الصالحة على مثال ما تفعل " محلة الرواد " .

وفرقة تبحث عن العمال والصناع المتعطلين ، وتسعى فى تشغيلهم ، وقد تمر وتثرى حتى تستطيع إقامة بعض المصانع لهم فتنفعهم وتنتفع بهم ، وتجعل مصانعها هذه دورا للرزق والتهذيب وملاجئ تقى العمال شر التعطل والغواية .

هذا هو جيش الخلاص الذى نحن فى مسيس الحاجة اليه. ومشايخ الطرق الصوفية بما يملكون من كثرة الأتباع وقوة العقيدة ووفرة الموارد هم الذين يستطيعون تكوين هذا الجيش العظيم ، الذى استطاع قس انجليزى واحد بقوة عقيدته ورغبته فى الخير وفهمه لحقيقة الخير الذى يرمى اليه الدين أن يكونه فى انجلترا .

لقد نشأ هذا الجيش صغيرا محدودا فى عام ١٨٦٥ فما جاء عام ١٩٢٠ حتى كانت له فروع فى ثلاث وسبعين مملكة ومجلات ومؤلفات تنشر بخمسين لغة، وحتى افتتح خمسة عشر بيتا لاستقبال خريجى السجون ، ومائة وستة عشر بيتا تستقبل النساء وتهيى لهن وسيلة العمل الشريف ، وستة وتسعين بيتا للطفولة المشردة ؛ وتسعة وثلاثين بيتا للأمومة، ومائتين واثنين وثمانين ملجأ ومأوى للعجزة والمحتاجين ؛ ومائة وثلاثة وسبعين مصنعا يعمل فيها المتعطلون ؛ واشترى اثنين وسبعين ضيعة يعمل فيها من لا يحسنون صناعات المدن ؛ وقام بربع مليون زيارة للبيوت فى سبيل تحقيق أغراضه .

هذا هو "جيش الخلاص" ... ... فآه لو كنت شيخا من مشايخ الطرق الصوفية !

على جمال الدين

من حكم الإمام على

— وانى لأخشى أن يأتى على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه. ومساجدهم يومئذ عامرة من البناء خراب من الهدى، سكانها شر أهل الأرض : منهم تخرج الفتنة ، وإليهم تأوى الخطيئة ، يردّون من شذ عنها فيها ، ويسوقون من تأخر عنها اليها .

— من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه. فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء ، ومن يقم بما يجب عرضها للزوال والفناء .